قراءة في قصيدة المدح عند جرير

د. عبادة حرز حبيب
الجامعة المستنصرية-كلية التربية الأساسية

المقدمة:

لعل أول مايواجه الباحث في الشعر الأموي أن قصائد المدح تشغل حيزاً كبيراً، وأن معظم هذه القصائد موجهة إلى ذوي السلطة والجاه، من خلفاء وولاة وأثرياء، وأن معظم شعر المديح اتخذ منه الشعراء وسيلة للكسب المادي، أو التقرب إلى الخلفاء الأمويين، ولاسيما إذا ماعلمنا أن الخلفاء الأمويين كانوا يدركون جيداً أهمية الشعر ودوره في حياة العرب، لذلك حاولوا أن يشتروا ذمم الشعراء بأموالهم ليذيع صيتهم بين العرب، ولعل الخليفة الأول معاوية بن أبي سفيان هو الذي سن لمن جاء بعده من الخلفاء هذه السنة التي أصبحت تقليداً سار عليه الخلفاء الأمويون. وقد أشار إلى ذلك الدكتور يوسف خليف بقوله: "لم يكد يستقيم الأمر لمعاوية حتى أصبحت دمشق حاضرة الدولة الجديدة، وظهر القصر لأول مرة في تاريخ الدولة الإسلامية ومع ظهور القصر الأموي ظهر الشعراء الذين التفوا حوله يمدحون خلفاءه وأمراءه طلباً لعطاياهم وجوائزهم"[١]، مما يعني أن خلفاء بني أمية اتخذوا من المديح وسيلة دعائية لسلطانهم ولذلك "ارتفع صوت المال في القصيدة الأموية واحتل جوانب غير قليلة منها"[٢].

ومن هذا المنطلق والإدراك بالمسؤولية قررت أن أبحث في موضوع المدح في شعر جرير لعلي أجد بعض ما شوه تراثنا الأدبي والحضاري من خلال متابعة هذا الغرض عند الشاعر جرير لعلي أصل إلى ماأصبو إليه في كشف جوانب الخير في أدبنا العربي.

ولاأدعي أني في هذا البحث المحدود أتمكن من كشف جميع جوانب الموضوع وخفاياه عند شاعر مثل جرير الذي يعد في الطبقة الأولى من الشعراء الإسلاميين، ومن فحول الشعراء المجيدين في معظم أغراض الشعر، وليكن هذا البحث بداية لأفق أرحب لمن يريد التوسع في هذا الموضوع ودراسته من كل جوانبه في المستقبل.

لابد لنا قبل الولوج في هذا الموضوع من اعطاء نبذة مختصرة عن الشاعر ومكانته الشعرية فهو جرير بن عطية الخطفى من قبيلة تميم العربية الأصل، ومن أقحاح العرب الذين نطقوا بالضاد، وتحقق نطقهم في القرآن الكريم فيصل لغة العرب، وجرير لغة حبل من أدم مفتول يخطم به البعير والجمع أجرة وجرر[٣] سمته أمه جريراً، قيل: أنها رأت

في المنام وهي حاملة به كأنها ولدت حبلاً من شعر أسود[٤] أمه تميمية أيضاً، وتلتقي مع أبيه في النسب بجدهما عوف بن كليب بن يربوع، فهو من صلب تميمي. وكان يكنى بأبي حزرة[٥] وكانت ولادته باليمامة بعد نيف وثلاثين عاماً من الهجرة النبوية، وتوفي فيها سنة إحدى عشرة ومائة بعد أن عمر نيفاً وثمانين سنة[٦]. نشأ وترعرع بين أحضان الفصحاء فتفتحت شاعريته، وكان من فحول الشعراء في الإسلام، فلقد عده ابن سلام في الطبقة الأولى من فحول الشعراء الإسلاميين في قوله: "الطبقة الأولى: جرير بن عطية بن الخطفى، واسم الخطفى حذيفة بن بدر بن سلمة ابن عوف بن كليب بن يربوع، خطفه بيت قاله:

يرفعنَ لليل إذا ماأسدفا أعناقَ جنّان وهاما رُجِّفا

وعتقا بعدَ الرَّسم خطفا"[٧]

كما روى ابن سلام بحقه فقال: "سألت بشاراً العقيلي عن الثلاثة، فقال لم يكن الأخطل مثلهما، ولكن ربيعة تعصبت له وأفرطت فيه، فقلت: فجرير والفرزدق؟ قال: كان جرير يحسن ضروباً من الشعر لايحسنها الفرزدق، وفضل جريراً عليه"[٨].

وروى أيضاً: "قال العلاء بن حريز العنبري: كان يقال: الأخطل إذا لم يجئ فهو سكيت والفرزدق لايجيء سابقاً ولا سكيتاً، فهو بمنزلة المصلى، وجرير يجيء سابقاً وسكيتاً ومصلياً[٩]. قال ابن سلام: وتأويل قوله: أن للأخطل خمساً أو ستاً أو سبعاً طوالاً روائع غرراً جياداً، هو بهن سابق، وسائر شعره دون أشعارها، فهو فيما بقي بمنزلة السكيت، والسكيت: آخر الخيل في الرهان، ويقال: إن الفرزدق دنه في هذه الروائع، وفوقه في بقية شعره فهو كالمصلي أبداً، والمصلي: الذي يجيء بعد التسابق، وقيل السكيت، وجرير له روائع هو بهن سابق، وأوساط هو بهن مصل، وسفسافات هو بهن سكيت"[١٠]. وقال أيضاً: "وأهل البادية والشعراء بشعر جرير أعجب"[١١] وقال في موضع آخر: "وذاكرت مروان ابن أبي حفصة جريراً والفرزدق فقال: أحكم في الثلاثة بشعر، فإن الكلام يرويه كل قوم بأهوائهم فقال:

ذهبَ الفرزدقُ بالفَخار وإنما حلوُ الكلام ومرُّهُ لجريرِ

ولقد هجا فأمَصَّ أخطلُ تغلبٍ وحَوى اللّهى بمديحه المشهور

كلُّ الثلاثةِ قد أجادَ فمدحهُ وهجاؤهُ قد سار كلَّ مسيرِ[١٢]

أما ابن قتيبة فيشبهه بالأعشى من شعراء الجاهلية، ويروى أن أبا عمرو بن العلاء كان يقول: هما بازيان يصيدان مابين العندليب إلى الكركي[١٣].

قال حنا الفاخوري بحقه: "كان فصيح اللسان من صغره مطبوعاً على الشعر فقاله صبياً"[١٤].

أما فؤاد أفرام فيقول: "لطيف لين إذا شاء اللين، صلب جاف إذا تعمد الجفاء، واضح سهل على أية حال سواء في الفكرة أو الصورة أو الديباجة، هو البدوي في حياته وشعره"[١٥].

يقول محمد إبراهيم جمعة بحقه: "صاغ الشعر مبكراً متأثراً ببيئته الشعرية والسياسية والاجتماعية مستجيباً للتجارب النفسية والإثارات الوجدانية مستلهماً سليقة فياضة وطبعاً دفاقاً يرسل القصيدة متى يشاء، ويصرفه كيف يشاء، سهلاً عذباً فخماً جزلاً، قوياً رضياً، محكم القافية خالياً من التكلف والحشو والتعقيد"[١٦].

وجاء في المفصل: "كانت مادة معانيه مستمدة من بيئة البدو مضافاً إليها ماجاء به الإسلام من الشعراء والآداب والعبادة والموعظة والحكمة فكان شعره يمثل الحياة البدوية الإسلامية كل التمثيل"[١٧].

ولا غرابة أن يتبوأ جرير هذه المكانة الشعرية فقد نشأ في بيت شعر وشعراء، تذكر الأخبار أن جده الخطفى كان شاعراً كما ذكرنا سابقاً، ومن ولده بلال كان شاعراً وعكرمة ونوح أيضاً كانا شاعرين، وحفيده عمارة من الشعراء المعروفين حتى انه يعد من الشعراء المشهورين في العصر العباسي، وأخذ عنه الرواة شعر جده وأكثر أخباره[١٨].

قال جرير الشعر هو صبي وأول أبيات قالها هي عتاب لجده الخطفى عندما قطع العطاء الذي كان يعطيه إلى عطية والد جرير. قال ابن سلام: "كان الخطفى ذا إبل ومال، فلما ولد جرير لعطية كان ينحله من إبله وماله فولد للخطفى صبية فرجع فيما كان نحل جريراً، فقال:

ألا حيِّ رهبَي ثم حيِّ المطاليا ... لقد كان مأنوساً فأصبحَ خاليا
عفَا الرّسم إلا أن تذكر أو ترى ... ثُماما حوالي منْصب الخيم باليا
إذا ماأراد الحيُّ أن يتحمّلوا ... وحنّت جمالُ الحيِّ حنّت جماليا
وإنّي لمغرورٌ أعلّلُ بالمُنى ... غداة أُرجّي أنّ مالكَ ماليا
وإنّي لعفُّ الفقر مشتركُ الغِنى ... سريعُ إذا لم أرضَ داري انتقاليا

وليســت لســيفي فــي العظــامِ بقيــةٌ وللســيف أشــوى وقعــةً مــن لســانيا"[١٩]

وينقل أبو الفرج الأصفهاني قصة طريفة ومحاورة أدبية بين الخليفة عبد الملك بن مروان ورجل يماني من بني عذرة نتعرف من خلالها على حسن شاعرية جرير بين الشعراء ومتذوقي الفن الشعري واهتمام العرب والرواة بصنيع شعره وروايته والتمجيد به لأنه كان حسن اللفظ سهل التركيب والعبارة شاعريته مطبوعة، كأنما يغترف من البحر، ويصب في معين الشعر فتطرب له النفس، ويعجب به عامة القوم وخاصتهم فجرى على الألسنة، وسرى بين الربوع ذلك هو جرير.

قال أبو الفرج: "قال له عبد الملك: من أنت؟ قال: أنا رجل جلبتني عنعنة تميم وأسد، وكشكشة ربيعة وحوشي أهل اليمن وإن كنت منهم، فقال: من أيهم أنت؟ قال: من أخوالك من عذرة، قال: أولئك فصحاء الناس، فهل لك علم بالشعر، قال: سلني عما بدا لك ياأمير المؤمنين، قال: أي بيت قالته العرب أمدح، قال: قول جرير:

ألستُمْ خيرَ مَن ركبَ المطايا وأندى العالمينا بطون راح"[٢٠]

ثم قال: وأي بيت قالته العرب أفخر، قال: قول جرير:

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبتَ الناس كُلَّهم غُضابا[٢١]

ثم قال: فأي بيت أهجا، قال: قول جرير:

فغضَّ الطرفَ إنكَ من نمير فلا كعباً بلغتَ ولا كلابا[٢٢]

ثم قال له: فأي بيت أغزل، قال: قول جرير:

إن العيون التي في طرفها حورٌ قتلننا ثمَّ لم يحيينَ قتلانا[٢٣]

ثم قال له، فأي بيت قالته العرب أحسن تشبيهاً، قال: قول جرير:

سرى نحوهم ليل كأنَّ نجومَه قناديلُ منهنَّ الذّبال المُفتلُ[٢٤]

وهذا البيت لم أعثر عليه في الديوان، والصحيح ماقاله جرير في الغزل هو ماأورده ابن سلام بقوله: "وبيت النسيب عندي:

فلما التقى الحيان ألفيت العصا ومات الهوى لما أصيبت مقاتله"[٢٥]

هذه المحاورة الأدبية تكشف عن شاعرية الرجل ومنزلته الشعرية بين أقرانه من شعراء عصره، فهي دليل واضح على عمق الأصالة الشعرية والنفس الشعري الرفيع، والصياغة الفنية القويمة لدى شاعرنا جرير، وإقبال الناس في زمانه على تذوق شعره،

وحتى في غير زمانه وإلى يومنا هذا، وانبهارهم بفنه وامتداحهم إياه. أقول: إن أمدح بيت قالته العرب قول جرير:

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

هو في مدح الخليفة عبد الملك بن مروان وإن كان تملقاً من الشاعر عندما قاله أو من العذري عندما ذكره أمام الخليفة، لكن الشاعر أجاد إجادة فنية رائعة في عباراته الشعرية، وتماسك ألفاظه وتناسقها، مستخدماً لفظة (الندى) التي تدل على العطاء والخير مع راحة اليد التي هي وسيلة العطاء والخير والهبة والنافلة، فالشاعر هنا موفق في هذا الترابط والتناسق بين عباراته ثم إن الموسيقى الشعرية في البيت كانت ذات نبر لين رقراق يتأثر بها السامع عند سماعها والدليل على ذلك قول جرير نفسه: "فلما انتهيت إلى هذا البيت كان عبد الملك متكئاً فاستوى جالساً وقال: من مدحنا منكم فليمدحنا بمثل هذا أو فليسكت"(٢٦).

إن شاعرية جرير هي شاعرية البيئة العربية البدوية يستخدم اللفظة السهلة البسيطة المعروفة لدى السامعين، ثم إنه على تدينه تأثر بالحضارة الإسلامية والألفاظ الجديدة التي أضاف القرآن الكريم استخدامها على لغة العرب الفصيحة، فكان طيب النفس رقيق الذوق، وهو على محك دائماً مع الاستخدامات الجديدة في اللغة العربية والتي جاءت بها الحياة الجديدة الإسلامية من إغناء وإثراء للغة العرب، فالشاعر جرير هو المعين الذي لاينضب لرفد حركة الشعر العربي من معان جديدة واستخدامات لطيفة متأثراً بلغة القرآن الكريم، فيقول عن نفسه: "إني لمدينة الشعر التي منها يخرج وإليها يعود. نسبت فأطربت، وهجوت فأرديت، ومدحت فسنيت، وارملت فأغزرت، وزجرت فأبحرت"(٢٧).

لذا يمكن القول أن جريراً شاعر البدو والحضر صاحب حلو الكلام ومره كما قال عنه مروان بن أبي حفصة: "وإنما حلو الكلام ومره لجرير"(٢٨)، ولهذا ذاعت شهرته في الأوساط الأدبية والجزيرة العربية، وسار شعره بين الناس، وانتشر انتشاراً واسعاً، وذاع صيته بين الحفاظ والرواة وفي المنتديات الأدبية، ويشهد له مربد البصرة، وسبب ذلك يعود لسهولة ألفاظه وأساليبه وعذوبة موسيقاه، وتمثيله الحياة البدوية الممزوجة بالحضارة الإسلامية أحسن تمثيل، فجاءت معانيه جديدة مؤثرة في النفوس التي تجد عنده خير من يمثلها ويطربها، فهو بذلك شاعر عصره بلا منازع، ولهذا قال عنه أحد النقاد: "تأثرت نفس جرير الصافية بالحياة الجديدة، فصورها للناس كما أحبوها، وابتدع لهم في شعره فن القول،

وجديد المعاني، وضروب الخيال وسهولة الأساليب، وعذوبة الموسيقى ماأعجبهم وأطربهم فتعلقوا به، وأقبلوا عليه يحفظونه وينشدونه في كل مكان حتى اتهمت الجن بإذاعته"[٢٩].

قصيدة المدح عند جرير:

المدح لغة يعني الإمتلاء والشبع، يقال: "امتدحت الأرض وتمدحت اتسعت وامدح بطنه أي اتسع، وتمدحت خواصر الماشية اتسعت شبعاً[٣٠] أخذت هذه الكلمة واطلقت على الثناء لشخص أعطي سعة وبسطة في الرزق، ووفرة في الغنى لكي يمنح بعضاً من نعمته إلى ناس يأملون الخير والعطاء من لدنه.

ولو تصفحنا تاريخ الحياة العربية لوجدنا قساوة الحياة وشظف العيش وقساوة الصحراء وسمومها، وماكانت تمليه من فاقة وفقر وعوز على بعض الناس، ولو أن الحياة العربية في عصر جرير بدأت طريقها نحو المدنية والترف في خلافة الأمويين. لكن نجد أن بعض المناطق لاتزال معوزة إلى المال والعطاء، فانطلق بعض الشعراء إلى ديار ومجالس الخلفاء للحصول على رفدهم وعطائهم، واستمالت ودهم وعطفهم، فجاء مدحهم عطاء وكرماً وتقرباً زلفى إلى الحكام والأمراء، هذا جانب من جوانب حركة ونشاط وشيوع شعر المدح الذي اتخذ منه خلفاء بني أمية وولاتهم وسيلة سياسية لتوطيد سلطتهم، لذلك اتسعت دائرته، أما الجانب الآخر هو أن بعض الشعراء مدح خلفاء بني أمية وولاتهم من مفهوم اعتزازهم بالدين الإسلامي حسب اعتقادهم، واعتزازهم أيضاً بالعنصر العربي، لأن الأمويين كانوا يميلون إلى العرب ويعدونهم مادة الإسلام والنواة الأولى له، أضف إلى ذلك إنهم كانوا يسهرون دائماً على تطبيق تعاليم الإسلام حسب اعتقادهم.

هذا الجانب لقي عند جرير رضا وارتياحاً فحرك مشاعره وأحاسيسه، وأطلق العنان للسانه يمدح الخلفاء والولاة ومن يدور في فلكهم انطلاقاً من إيمانه بعدالة الدين وبأحقية الأمويين بالخلافة حسب رأيه، لأنهم باعتقاده أهل وحملة لتطبيق عدالة الله في الأرض، ولكن في نظر آخرين خلاف ذلك، لذلك حدث صراع سياسي أدى إلى ظهور نوع من الشعر، وغرض آخر هو الشعر السياسي، ولكون جرير عاش عيشة بدوية متأثراً بعادات وتقاليد البادية والقبيلة العربية والعرف الاجتماعي السائد جامعاً بين العفة والنزاهة والسلوك الديني القويم، لأنه كان متأثراً بتعاليم الدين الحنيف والعادات العربية الحسنة، من وفاء ومروءة وشجاعة ونبل وإكرام ضيف، فعاش في ضوء هذه الظروف الطيبة عيشة مؤمن راضٍ بقضاء الله وبقدره.

في ضوء هذا الاعتقاد ينظر جرير إلى الخلفاء الأمويين بعين الاحترام والتقدير، وأن ولاة الأمصار هم الأداة المنفذة لتعاليم الخليفة، فعندما يمدح ممدوحه يضفي عليه حلة موشاة بالوقار والهيبة لما يضيفه عليه الدين وتعاليمه من كياسة وقدسية وهو ينفذ تطبيقات الشرع القويم، فالمديح عنده ديني أكثر مما هو دنيوي، وبحسب معتقده الذي يملي عليه ذلك.

إذا انتقل إلى حقل الدين أطال القول فيه حتى يخيل للقارئ الكريم أن المدح ديني أكثر مما هو مدني، وحتى أن للخلافة شأناً دينياً لا شأناً مدنياً ودنيوياً، في ضوء ذلك تنتشر في مدائحه ألفاظ الخلافة و القرآن الكريم والألفاظ الإسلامية النبيلة والأحكام الشرعية والأمانة والتقى والورع والهدى والبركة والنافلة وشعب الإيمان جميعها، فالخلفاء في نظره وفي شعره هم الذين اختارهم الله، وهم الذين ينسبون إلى قريش ومن فرعها بني أمية، وهم الذين أثبتت الأيام والأحوال أنهم أهل الخلافة والسلطان في اعتقاده[٣١]، قال في مدح يزيد بن عبد الملك:

زانَ المقابرَ واختالت بمنتجبٍ مثبتٍ بكتابِ اللهِ منصور[٣٢]

وفيما يخص بنية قصيدة المدح، فعلى الرغم من أن جريراً كان ممثلاً للإتجاه الإحيائي في قصيدة المدح الأموية، إلا أنه التزم بنظام قصيدة المدح القديمة، وحافظ على بنيتها الفنية من حيث الصور والموضوعات والمعاني، لذلك نجده في كثير من قصائده المدحية يلتزم بالمقدمة الطللية والرحلة والغرض، إلا أن ذلك لايعني أن الشاعر لم يحاول أن يطور قصيدة المدح ويجدد فيها، فهو على الرغم من تمسكه بالموروث القديم إلا أنه حاول أن يضيف إليها شيئاً من حياته وعصره، فهو وإن اتكأ على الموروث الشعري إلا أنه كان حريصاً على النهوض بهذا الموروث، فقد تمكن من توظيف طاقاته وابداعاته الفنية من إخراج قصيدة المدح بحلة جديدة تبين قدرته في هذا الجانب.

التزم جرير في أغلب قصائد مدحه على طريقة القصيدة العربية القديمة، فهو أول مايبدأ قصيدته بالمقدمة الغزلية أو الطللية مقلداً شعراء الجاهلية، لأنه كان متأثراً إلى مدى بعيد بتقاليد العرب، لأنه عربي صلباً، بدوي طبعاً كما أسلفنا، ثم ينتقل إلى وصف رحلته في الصحراء، وبعد ذلك يدخل إلى غرضه من قصيدة مدحه وغرضه هذا غرض نبيل فيه صفاء المودة تجاه الممدوح، لأن الكلمات تخرج من نفس صافية طيبة ملؤها الخير والمحبة، فهو يصف ممدوحه بالصفات الحسنة والأعمال النبيلة، ويشيعها بين الناس إيماناً

منه بأن ممدوحه يسير في ضوء الحياة الإسلامية الوادعة، فكان يزاوج بين نسيب الجاهلية ومعاني الحياة الإسلامية الجديدة. فبدأ مديحه بالنسيب مقلداً شعراء الجاهلية، واستمد معانيه الجديدة المتنوعة من الحياة الإسلامية والعناصر الدينية(٣٣).

لقد زاوج جرير في مدحه بين القديم الجاهلي البدوي، وبين الجديد الإسلامي الحضري، ومن هذا التزاوج نشأ لديه فن رائع يمثل الأصالة العربية القديمة والحضارة الإسلامية الرفيعة فجاء مدحه أنموذجاً حياً لبيئته وحياته ومعيناً نابضاً لحياة قومه وسادات أرومته، فيقول في مدح عمر بن عبد العزيز:

أبــتْ عينــاكَ بالحَســنِ الرُّقــادا وأنكــرت الأصــادقَ والــبلادا
لعمــرُك إنّ نفــعَ ســعادَ عنّــي لمَصــروفٌ ونفعــيَ عــن سُــعادا
فكيــفَ إذا نــأتْ ونأيــتُ عنهــا أعــزّي الــنفسّ أو أزَعُ الفــؤادا
إلــى الفــاروق ينتســبُ ابــنُ ليلــى ومَــروانَ الــذي رفــعَ العمــادا
تــزوّد مثــلَ زادِ أبيــك فينــا فــنعمَ الــزادُ زادُ أبيــك زادا
فمــا كعــبُ بــنُ مامــةَ وابــنُ سُــعدى بــأجودَ مِنــكَ يــاعُمر الجــوادا
وأنــتَ ابــنُ الخضــارمِ مــن قُــريش هُــمُ نصــروا النبــوةَ والجهــادا(٣٤)

نلاحظ من خلال هذه الأبيات أن جريراً بدأ مديحه بالمقدمة الغزلية أو شعر النسيب، ثم دخل في غرض قصيدته ومدح الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز مستخدماً في مدحه ألفاظ الحضارة الإسلامية مثل: المعاد، النبوة، الجهاد، وذكر الفاروق الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب (رض)، أضف إلى ذلك أنه يزاوج مع هذه الألفاظ ألفاظاً ومعانٍ عربية تمثل الحياة العربية الخالصة.

جاء في المفصل: "كانت مادة معانيه مستمدة من بيئة البدو مضافاً إليها ماجاء به الإسلام من الشعائر والآداب والعبادة والموعظة والحكمة، فكان شعره يمثل الحياة البدوية الإسلامية كل التمثيل... فكانت معانيه فطرية قريبة الحضور بالبال غير بعيدة الغور كطبعه في السماحة واللين"(٣٥).

قال في مدح الحجاج:

سَــئمتُ مــن المواصــلةِ العتابــا وأمســى الشَّــيبُ قــدْ ورِثَ الشــبابا
لقــد أقــررتِ غيبتَنــا لِــواشٍ وكنّــا لانقــرُّ لــك اغتيابــا
أنــاة لا النمّــومُ لهــا خــدين ولاتُهــدي لجارتهــا السُّــبابا

كـــأنَّ المســـكَ خـــالطَ طعـــم فيهـــا بمـــــاء المُـــــزنِ تطـــــردُ الحبابـــــا
لقـــد نـــامَ الخلـــيُ وطـــالَ ليلـــي بحبِّـــكِ مـــا أبيـــتُ لـــه انتحابـــا
أرى الهجـــرانَ يُحـــدثُ كـــلَّ يـــوم لقلبـــي حـــينَ أهجـــرُكُمْ عتابـــا
دعـــا الحجـــاجُ مثـــلَ دُعـــاءِ نُـــوح فأســـمعَ ذا المعـــارج فاســـتجابا
ولـــو لـــم يَـــرْضَ ربُّـــكَ لـــم ينـــزّلْ مـــع النَّصـــرِ الملائكـــةَ الغضـــابا
إذا ســـعرَ الخليفـــةُ نـــارَ حـــربٍ رأى الحجـــاجَ أثقبَهـــا شـــهابا
تـــرى نصـــرَ الإمـــام عليـــك حقـــاً إذا لبَســـوا بـــدينهم ارتيابـــا[٣٦]

في هذه الأبيات يتحدث الشاعر عن المعاتبة بين الأحبة وعن الواشي الذي يفرق بين المتحابين، ثم إنه يصف محبوبته بأنها ليست نمامة ولا سبابة لجارتها، ثم يصف زينتها وعطرها، ويتحدث عن الهجران وما عمل بقلبه، بعد ذلك ينتقل إلى وصف ممدوحه (الحجاج) بأنه رجل مؤمن بالله ودعا على أعدائه وأعداء الإسلام بدعاء نوح (عليه السلام): ((رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً))[٣٧] ثم يقول: اسمع بدعائه ذا المعارج، وهي صفة الله سبحانه وتعالى ((من الله ذي المعارج))[٣٨] يدل ذلك قوله أن نصر الحجاج مؤيد من الله سبحانه وتعالى فأنزل عليه الملائكة الغضابا التي أيدته بنصره ومن الله النصر العظيم، هذا يخيل للشاعر وصياغته حسب هواه، لكن بما يعترض عليه معترض لايؤمن بسياسة الأمويين وولاتهم، لأنهم خالفوا الشورى في الحكم الذي سار عليه الخلفاء الراشدون (رض) والخلف الصالح من المؤمنين.

إن جريراً يجمع بين اللفظة اللطيفة الشفافة العربية التي كان العرب يستخدمونها في صحرائهم وبين المعاني العربية الإسلامية والألفاظ القرآنية الجميلة، لأنه متأثر كل التأثر بما أنزل من رب العالمين، وهذه صفات المسلم وصفات ممدوحه الذي هو في نظره مؤمن بتعاليم الشريعة الإسلامية فيضفي عليه هالة من النسك والتدين الظاهري لايدخل في التفاصيل لكي يحصل على مطلبه من هبة وعطاء ونافلة من لدن ممدوحه، قال في مدح سليمان بن عبد الملك:

عـــلامَ تلـــومُ عاذلـــةٌ جَهـــولُ وقـــد بلـــى رَواحلنـــا الرحيـــلُ
عليـــكِ وإن بليـــتِ كمـــا بَلينـــا ســـلامُ الله أيتُهـــا الطلـــولُ
أبـــانَ الحـــيُّ يـــومَ لِـــوى حُيَـــيٍّ نَعـــمْ بـــانوا ولـــم يُشـــفَ الغليـــلُ

ليـــــاليَ لاتودعنـــــا بصُـــــرمِ فتؤيســـــنا ولا بجـــــدى تنـــــولُ
كأنـــكَ حـــينَ تشـــحطُ عنـــكَ ســـلمى أمـــــيمٌ حـــــينَ تـــــذكرهُ تبيـــــلُ
ســـليمانُ المبـــاركُ قـــد علمـــتمُ هـــو المهـــديُّ قـــد وضـــحَ الســـبيلُ
أجـــرْتَ مـــن المظـــالم كـــلَّ نفـــسٍ وأدّيـــتَ الـــذي عهـــدَ الرّســـولُ
فرّجـــتَ الهـــمَّ والحلقـــاتِ عـــنهمْ فأحيـــا النـــاسُ والبلـــد المُحـــولُ[٣٩]

كما عرفنا أن جريراً يبدأ كما بدأ أقرانه من شعراء عصر ماقبل الإسلام والإسلام بمقدمتهم الطللية فيقول: "سلام الله أيتها الطلول" ثم يتابع نسيبه وطريقته التي سار عليها في مدحه، واستخدامه الكلمات والعبارات الرقيقة حتى يدخل في غرضه، فيصف سليمان بأنه مهدي هذه الأمة على طريق الخير والصواب، وحاول أن يكشف هذا المهدي ويفرج ظلامات الناس، وأدى ما عهد به الرسول محمد (ص) فهو خليفته يفرج الكربات عن الناس، وأحيا الناس والبلد الممحل، وأصبحوا في خير ورخاء ونعمة وأمان في عهد خليفتهم سليمان.

لقد بالغ جرير في مدحه لسليمان لقاء الجزاء والعطية والهبة من الخليفة، وأن المهدي حسب مانقل في التاريخ، وما سمعنا من أحاديث الرسول الكريم (ص) رجل هاد إلى طريق الصواب يخرج في آخر الزمان يملأ الأرض عدلاً وقسطاً مثل ماملئت ظلماً وجوراً، وهذه مبالغة من الشاعر عندما يجعل من الخليفة هو المهدي، وهو قريب العهد برسول الله (ص)، ولكي نتفق مع الشاعر لأنه أراد من ممدوحه شخصاً يفيض عليه هالة من القدسية والكرامة لكي ينال الجائزة التي يرجوها منه، أو لربما يكون داعية بني أمية في زمانه.

ومن خلال دراستنا لقصائد المدح التي أنشدها جرير في مدح خلفاء بني أمية اتضح لنا أن بدايتها كانت في أوائل عهد الحجاج بن يوسف الثقفي، إذ بدأ خلال هذه الحقبة ينظم القصائد الجزلة لمدح الخلفاء الأمويين وولاتهم. قال شوقي ضيف: "وصار حكم العراق لقيس وصاحبها الحجاج رأيناه يقدم على صهره وابن عمه الحكم بن أيوب الثقفي نائبه على البصرة فيمدحه برجز يقول فيه:

خليفةُ الحجّاج غيرُ المتهم في مقعد العز وبؤبؤ الكرم

واستنطقه فأعجبه ظرفه وشعره فكتب إلى الحجاج يخبره عنه، فكتب إليه أن أبعث به إلي، فقدم عليه فأكرمه وسرعان ماعاش جرير يمدحه مدائح رائعة[٤٠] من مثل قوله:

هـــاج الهـــوى لفـــؤادك المُهتـــاج فـــانظُرْ بتوضـــحَ بـــاكر الأحـــداجِ
هـــذا هـــوىً شـــغف الفـــؤادَ مُبـــرِّحُ ونـــوىً تقـــاذفُ غيـــرُ ذاتِ خـــلاجِ
إنَّ الغُـــراب بمـــا كرهـــتَ لَمولـــعٌ بنـــوى الأحبّـــةِ دائـــمُ التّشـــحاجِ[٤١]

هذه المقدمة التي ينحو بها الشاعر مقلداً لمن سبقه تزخر بشعر النسيب واستخدام الألفاظ الرقيقة العاطفية إلى البيت السابع تقريباً، ثم يقول:

قُـــلْ للجبـــان إذا تـــأخرَ ســـرجهُ هـــل أنـــتَ مـــن شـــركِ المنيـــة نـــاجي؟
فـــتعلّقنْ ببنـــاتِ نعـــشٍ هاربـــا أو بـــالبحور وشـــدّةِ الأمـــواجِ[٤٢]

وهذان البيتان حكمة يدرجهما الشاعر، ويقول للجبان ويعزره بأنك لم تنج من المنية متأثراً بمفاهيم القرآن الكريم. قال تعالى: ((أينما تكونوا يدرككم الموت))[٤٣]، ثم يدخل في مدح ممدوحه ويصفه بأنه رجل إصلاح وماؤه الغيرة على أعراض الناس، وجاء ليملأ الأرض عدلاً ويمحو الجور والظلم من الناس إذ يقول:

مَـــنْ ســـدّ مطلَـــعَ النفـــاقِ علـــيهم أم مَـــنْ يصـــولُ كصـــولةِ الحجّـــاجِ
أم مَـــنْ يغـــارُ علـــى النســـاءِ حفيظـــةً إذْ لايـــــــتقنَ بغيـــــــرةِ الأزواجِ
إنّ ابـــنَ يوســـف فـــاعلموا وتيقنـــوا ماضـــي البصـــيرةِ واضـــحُ المنهـــاجِ
مـــاضٍ علـــى الغمـــراتِ يُمضـــي همّـــهُ والليـــلُ مختلـــفُ الطرائـــقِ داجـــي
منـــعَ الرّشـــا وأراكـــمُ ســـبلُ الهُـــدى واللـــــصَّ نكّلـــــهُ عـــــن الأدلاجِ
فاستوســـقوا وتبينـــوا ســـبُلَ الهـــدى ودعـــوا النّجـــيَّ فلـــيسَ حـــين تنـــاجي
داويـــتهُم وشـــفيتهُمْ مـــن فتنـــةٍ غبـــراءَ ذاتِ دواخـــنٍ وأُجـــاجِ[٤٤]

يريد أن يقول: إن الحجاج سد ثغور النفاق مع شجاعة فائقة ومحافظة على الزمام، ويقول أنه نافذ البصيرة، واضح السياسة، يعرف كيف يخرج من الغمرات والشدائد، ويصور كيف أقام العدل بين الناس ومنع الرشوة، وقضى على اللصوص وقطاع الطرق في الليل المدلهم، وإنه قوم كل مائل وباطل، وداوى النفوس المريضة وحطم سنة المنحرفين عن الدولة، ولم يبق هناك أحد ممن يعيثون في الأرض فساداً.

وله في الحجاج أبيات أخرى أيضاً من قصيدته التي سلفت نريد أن نذكرها هنا كشاهد على مانقول جاء فيها:

صَـــبرتَ الـــنفسَ يـــابنَ أبـــي عقيـــل محافظـــــةً فكيـــــفَ تـــــرى الثوابـــــا
إذا ســـــعر الخليفـــــةُ نـــــارَ حـــــربٍ رَأى الحجّـــــاجُ أثقبَهـــــا شـــــهابا

تشـــدُّ فـــلا تكـــذّبُ يـــومَ زَحْـــفٍ إذا الغمـــــراتُ زعزعـــــتِ العقابـــــا
عفاريـــتُ العـــراقِ شـــفيتَ مـــنهم فأمسُـــوا خاضـــعين لـــكَ الرّقابـــا
وقـــالوا لـــن يجامعنـــا أميـــرٌ أقـــامَ الحـــدَّ واتبـــعَ الكِتابـــا
إذا أخـــذوا وكيـــدهمُ ضـــعيفٌ ببـــابٍ يمكـــرون فتحْـــتَ بابـــا
إذا عَلِقـــتْ حبالَـــك حبـــلَ عـــاصٍ رأى العاصـــي مـــن الأجـــلِ اقترابـــا[٤٥]

إن مدح جرير للحجاج مدح سياسي تتخلله عبارات دينية ينحو بها منحى الرجل المؤمن بإصلاحات وسياسة ممدوحه التي هي نابعة من إيمان عميق بتطبيق تعاليم الدين الحنيف، فبذلك يكشف لنا شعره عن شخصية ممدوحه (الحجاج) التي شوهت من قبل الرواة في العصر العباسي بحسب مايراه شوقي ضيف في شعر جرير إذ يقول: "والحق أن الحجاج شوهه الرواة في العصر العباسي إرضاء للعلويين والعباسيين جميعاً، وطبعاً كانت فيه قسوة، ولكنها كانت قسوة ضرورية، وان من يقرأ وصف جرير له ليعرف أنه كان يتبع سياسة حازمة رشيدة... وعلى هذه الشاكلة يصور جرير في مدائحه الحجاج وسياسته أنها سياسة قويمة، تقوم على سبل الهدى"[٤٦].

إن الحجاج وضع السيف في رقاب العلويين والعباسيين والزبيريين ولاسيما من آل الرسول (ص) وأولاد الصحابة الكرام فكيف لاتقول عليه الرواة ماتقول، وان سياسته كانت قاسية ضد السكان وبخاصة العراقيين، وهو صاحب الخطبة المشهورة في أهل العراق إذ يقول: "إني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها وإني لصاحبها"[٤٧] يقصد بذلك أنه بصير بحال القوم من الشقاق والخلاف في بيعة عبد الملك بن مروان، فهو يحذرهم عاقبة ذلك، وقال أيضاً: "سوطي سيفي فنجاده في عنقي وقائمه في يدي، وذبابه قلادة لمن اغتر بي، فقال الحسن: بؤساً لهذا، ماأغره بالله"[٤٨].

لقد كرس جرير عامة شعره في مدح الحجاج لأنه الذي ساعده على الوصول إلى مقر الخلافة في دمشق لكي يحصل على رضا خلفاء بني أمية، وبالتالي يحصل على هباتهم وعطاياهم فنراه يقول فيه:

لقـــدْ جـــرّدَ الحجّـــاج بـــالحقِ ســـيفَهُ لكُـــمْ فاســـتقيموا لايمـــيلَنَّ مائِـــلُ
فمـــا يســـتوي داعـــي الضـــلالةِ والهُـــدى ولا حُجّـــةُ الخصـــمين حـــقٌ وباطـــلُ
وأصـــبحَ كالبـــازي يُقلِّـــبُ طرفَـــهُ علـــى مربـــأٍ والطيـــرُ منـــه دواخـــلُ
وثنتـــان فـــي الحجّـــاج لا تَـــركُ ظـــالمٍ ســـويّاً ولا عنـــدَ المراشـــاتِ نائـــلُ

قــدمتَ علــى أهــل العــراقِ ومــنهمُ مخــالفُ ديــنِ المســلمين وخــاذلُ
فكنــت لمــن لايُبــرئ الــدّينُ قلبــه شِــفاءٌ وخــفّ المُــدهنُ المتثاقــلُ(٤٩)

الذي مر من شعر جميل في المدح، هو في مدح ممدوح هو وال من ولاة الخليفة عبد الملك بن مروان، فمما لاشك فيه أن هذا الشعر يصل إلى أسماع الخليفة فعلاً، والشاعر يريد أن يصل لكي يحصل على رضا الخليفة، وينال جائزة ويتقرب إليه زلفى لقد وصل الشعر إلى الخليفة وفرح به، وكان يغبط الحجاج على شاعره جرير، وعرف الحجاج نوايا الخليفة الحسنة في حقا شاعره وتجاه شعره فأرسله إليه مع ابنه محمد، ولما وصل الشاعر وهذا مبتغاه، ومثل بين يدي الخليفة عبد الملك بن مروان، وأنشده قصيدته المشهورة في مدحه ومدح أهله والتي مطلعها:

اتصــحُو بــل فُــؤادك غيــرُ صــاحِ عشــيةَ هــمَّ صــحبُكَ بــالرَّواحِ
يقــولُ العــاذلاتُ عَــلاك شــيبٌ أهــذا الشــيبُ يمنَعنــي مراحــي
يكلفنــي فُــؤادي مِــنْ هَــواه ظعــائنَ يجتــزعنَ علــى رُمــاحِ
ظعــائنَ لــم يَــدنَّ مــع النصــارى ولا يــدرينَ مــا سَــمْكُ القُــراحِ
فــبعضُ المــاءِ مــاءُ رَبــابِ مُــزنٍ وبعــضُ المــاءِ مــن ســبَخٍ مِــلاحِ
ســيكفيك العــواذلَ أرحَبــيٌّ هِجــانُ اللّــون كــالفَردِ الليّــاحِ
يَعُــزّ علــى الطريــقِ بمنكبيــه كمــا ابتــركَ الخَليــعُ علــى القِــداحِ(٥٠)

هذه الأبيات السبعة مقدمة قصيدة المدح عند جرير ظاهرها النسيب يفتتح بها في أغلب قصائده التي يرسم بها شخصية ممدوحه. يستخدم بها الألفاظ الرقيقة واللطيفة العاطفية والوجدانية، وهو بذلك يمهد إلى مدحه لكي يجعل نفسية ممدوحه متوقة إلى سماع أبياته الشعرية اللطيفة.

ثم يأتي بمحاورة شعرية مع زوجته أم حزرة يقول فيها:

تعــزَّت أمُّ حــزرة ثــم قالــت رأيــتُ المــوردين ذوي لِقــاحِ
تُعلــلُ وهــي ســاغبةٌ بنيهــا بأنفــاسٍ مــن الشّــمِ القِــراحِ
ســأمتاحُ البحــورَ فجنبينــي أذاةَ اللــومِ وانتظــري امتيــاحي
ثِقــي بــالله لــيسَ لــهُ شــريكٌ ومــنْ عنــد الخليفــةِ بالنَّجــاحِ(٥١)

في هذه المحاورة مع زوجته يبين فيها إن زوجته ساغبة أي جائعة مع بنيها، وتطلب المعونة من زوجها، وهو يعدها بأنه سوف يذهب إلى صاحب العطية وذي الهبات

ليحصل عليها ويسد فاقها وفقرها، وإنه أقسم بالله الذي ليس له شريك. إن صاحب النافلة هو الخليفة عبد الملك ابن مروان والذي عنده النجاح بالمورد الأكبر. ثم نسمعه يقول:

أغثْني يافداكَ أبي وأمّي بسيبٍ منكَ إنَّكَ ذُو ارتياحِ
فإنّي قد رأيتُ عليّ حقا زيارتي الخليفةَ وامتداحي
سأشكرُ أنْ رددْتَ عليَّ ريشي وأثبَتَ القوادِمَ في جناحي(٥٢)

في هذه الأبيات يطلب من عبد الملك المعونة والمساعدة لأنه الخليفة صاحب العطاء والنافلة وإن زيارته وامتداحه حق وواجب على الشاعر لأنه أهل لهذا المدح وتلك الزيارة، ثم يشكر الخليفة إذا عانه وساعده على قساوة عيشه فيشبه عطاء الخليفة كالريش الذي يغطي جسم الطائر ويحميه من عاديات الزمن. بعد ذلك يدخل في أبيات المدح بصورة مباشرة ولاسيما البيت الشعري الذي يقول عنه النقاد إنه أمدح بيت قالته العرب وهو:

ألستُمْ خيرَ من ركِبَ المطايا وأندى العالمين بطونِ راحِ
وقوم قد سموْتَ لهم فدانوا بدَهم في مُلَملمةٍ رداحِ
أبَحْتَ حمى تهامةَ بعد نَجْدٍ وما شيءٌ حميتَ بمستباحِ
لكُمْ شمُّ الجبال من الرّواسي وأعظمُ سيلِ مُعتلجِ البطاحِ
دعوتَ الملحدينَ أبا خُبيْبٍ جماحاً هل شُفيتَ من الجِماحِ
فقد وجَدوا الخليفةَ هِبْرزِيّاً ألفَّ العيص ليس من النوّاحي
فما شجراتُ عيصكَ في قريشٍ بعشّاتِ الفروع ولا ضواحي
رأى الناسَ البصيرةَ فاستقاموا وبيّنْتَ المراضُ من الصِّحاحِ(٥٣)

بعد أن مدح الخليفة وأهله بما أراد أن يقول من المدح واستخدام الألفاظ اللطيفة الرنانة التي يأنس إليها سمع الممدوح. تطرق إلى عبد الله بن الزبير (أبو خبيب) وصور فتنته وكيف قضى عليها عبد الملك قضاء مبرماً، ومضى يمدح عبد الملك وأسرته، وأنهم الجديرون من بين القرشيين بالخلافة منوهاً بانقياد الأمة له واجتماعها تحت لوائه. ففي هذه القصيدة جرير ليس مادحاً لعبد الملك فحسب، وإنما كان محامياً له ضد أعدائه، ويدافع عن حقه في الخلافة، ويهاجم خصومه(٥٤).

وما يكاد أن تمسه يد عبد الملك وتقدم له المعونة والمساعدة والتشجيع حتى ذاع شعره بين الناس، وأخذ بمدحه يسبغ على ممدوحه صفات الخلافة من ورع وتقى وأن

الخليفة هو الأمين المبارك في الأرض والله يهدي أنصاره إلى طريق الصواب وجادة الحق، لأن خليفتهم وقائدهم عامل بحدود الله والقرآن والسنة النبوية، فنراه يقول في حق الخليفة:

لـــولا الخليفـــةُ والقـــرآن يقـــرأهُ ماقـــامَ للنّـــاس أحكـــامٌ ولا جُمَـــعُ
أنـــتَ الأمـــينُ أمـــينُ الله لا سَـــرفٌ فيمـــا وليـــتَ ولا هيّابـــةٌ ورَعُ
أنـــتَ المُبـــاركُ يهـــدي الله شـــيعتَهُ إذا تفرقـــتِ الأهـــواءُ والشِـــيعُ
يـــاآل مـــروانَ إنَّ الله فضّـــلكمْ فضـلاً عظيمـاً علـى مَـن دينَـهُ البِـدعُ[٥٥]

فالأمويون هم أهل الكتاب والسنة، وخصومهم أهل البدع والإلحاد، وهذا في نظر الشاعر ولكن نرى أن غيرهم ساروا على هدي القرآن الكريم وهدي الرسول (ص) وهم عامة المسلمين كما نلاحظ في التاريخ الإسلامي. لكن الشاعر أوقف شعره على مدح آل مروان من أجل الحصول على الحضوة عندهم وبالتالي الحصول على عطاياهم وهباتهم، لأنه لم يقصر المدح عليهم فقط، وإنما مدح غيرهم من القيسيين الذين هم أعداء بني تميم في الجاهلية والإسلام ومدح الموالي من العجم وسواهم بالعرب في الشرف فكانت منحهم وعطاياهم لاتنقطع عنه وكلهم كان يحفظ شعره ويرويه ويباهي به، وكان إذا مدح استقصى صفات الممدوح وأطال ولا يخلطه بفخر ولا هجو خصوم[٥٦]. من هذا نفهم إن الشاعر مدح من أجل الهدية لا من أجل تثبيت مبدأ أو قضية سياسية للممدوح، وإنما كان يطلب من مدحه الحصول على رضا الممدوح فقط وبالتالي نيل الهبة والعطية فقط.

لقد أكثر جرير من مدح خلفاء بني أمية للتقرب زلفى إليهم لا إلى الله، لأنه يعلم ويعلم غيره أنهم غيروا نهج الإسلام في اختيار خليفة المسلمين، ولم يسيروا على ماجاء في القرآن الكريم ((وأمرهم شورى بينهم))[٥٧] فكانت خلافتهم وراثية، وهذا مبدأ جاهلي أبطله الإسلام ولم يقره، وإنما أقر الشورى، والخلافة اختيار من قبل العامة لا من قبل الخاصة، ويختار من هو كفوء وفيه صفات الإسلام من الصلاح والتقوى والقيادة المخلصة، ثم هي إفاضة من الله على خليفته في الأرض لما فيه صلاح الأمة والناس أجمعين.

قال من قصيدة أخرى يقر فيها الخلافة لعبد الملك بن مروان وانها من الله أودعها في بني أمية وليس لها تبديل، وإذا بدلوا بغيرهم إنما بدلت إرادة الله وملك الله، وإن ملكه وإرادته ليس لها تحويل:

اللهُ طَوقـــكَ الخِلافـــةَ والهُـــدى والله لـــيسَ لِمـــا قَضـــى تَبـــديلُ
إن الخلافـــةَ بالـــذي أبليـــتمُ فـــيكم فلـــيسَ لملكهـــا تحويـــلُ[٥٨]

في هذين البيتين دلالة واضحة على مبدأ الجبرية في الإسلام الذي أقره الأمويون في خلافتهم، وأصبحوا خلفاء الله ورسوله في ضوء ذلك. فجرير هنا يؤكد على هذا المبدأ ويذيعه بين الناس بواسطة شعره حتى يصبح أمراً واقعاً لا مناص منه، لأن الأمويين يريدون انتشار فكرة هذا المبدأ حتى ينصرف الناس عن التفكير بمصير الخلافة ومحاولة تبديلها، فإنهم إن بدلوها بدلوا سنة الله في خلقه، وحكم الله في أرضه، فهو إذ يشيع هذا المبدأ إرضاء لبني أمية حتى يحصل على هباتهم، أو ربما هو مؤمن بذلك والله أعلم.

إن مبدأ الجبرية هو أن الله عز وجل شاء أن يكون بنو أمية خلفاء رسوله الكريم، أو هي تفويض أو منحة إلهية منحها الله لبني أمية ليكونوا خلفاءه على المسلمين، وهذا خلاف ماسار عليه الرسول الكريم (ص) والخلفاء الراشدون من مبدأ الشورى ومبدأ الاختيار، اختيار التقي الورع الذي يسير على سنة الله ورسوله والقرآن الكريم كما هو ثابت عند الرسول (ص) والخلفاء الراشدين (رض).

لو تصفحنا أغلب مدائح جرير لخلفاء بني أمية نجد تأكيده على مبدأ الجبرية بشكل واضح، فهو إذ يقررها في مديحه هذا لكي يدافع ويكافح عن أحقية الأمويين في الخلافة وإذا أقر ذلك ينال رضاهم، وإذا نال رضاهم نال جوائزهم فنراه يقول في مدح الوليد بن عبد الملك:

إنَّ الوليـــدَ هُـــوَ الامـــام المصـــطفى بالنّصـــرِ هُـــزَّ لـــواؤهُ والمغـــنَمِ
ذو العـــرشِ قـــدّرَ أن تكـــون خليفـــةً مُلّكـــتَ فآعـــلُ علـــى المنـــابرِ وأسـلَمِ[٥٩]

فكلمة (قدر) أي إن الله في قدرته التي استطالت على كل شيء جعل الخلافة في الأمويين لأنهم أهل لتلك الخلافة وعلى الناس أن يطيعوهم إطاعة عمياء، لأنهم منصبون من الله سبحانه وتعالى، وهذا تجاهر بمبدأ الجبرية الذي أقر عند جرير تديناً أو وسيلة لتبرير غاية في نفسه والله أعلم.

وأيضاً نراه يقر هذا المبدأ في مدح هشام بن عبد الملك بقوله:

تعرَّضـــت الهمـــومُ لنـــا فقالـــتْ جُعـــادةُ: أيّ مُرتحـــلٍ تريـــدُ
فقلـــتُ لهـــا الخليفـــةُ غيـــرَ شـــكٍّ هـــو المهـــديُّ والحكَـــمُ الرّشـــيدُ[٦٠]

ويكرر النغمة نفسها إن الخلافة اختيار من الله سبحانه وتعالى، وإن بني أمية هم المهديون والهادون الذين اختارهم الله لقيادة الناس، وهذا خلاف عما عليه المسلمون عامةً فيقول في مدح سليمان بن عبد الملك:

سُـــليمانُ المبـــاركُ قـــد علمـــتُم هـــو المهـــديُّ قـــد وضَـــحَ الســـبيلُ
أجـــرتَ مـــن المظـــالمِ كـــلَّ نفـــسٍ وأديـــتَ الـــذي عهـــدَ الرّســـولُ
صـــفتْ لـــكَ بيعـــةٌ بثبـــاتِ عهـــدٍ فـــوزنُ العـــدلِ أصـــبحَ لايميـــلُ
تـــزولُ الرّاســـيات بكُـــلِّ أفـــقٍ ومَجـــدُكَ لايُهـــدَّ ولا يـــزولُ[٦١]

كيف لايزول مجد سليمان؟ أو لم يعلم جرير إن الدنيا تزول جميعها، أو لم يقرأ قوله تعالى: ((كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام))[٦٢] والله الذي قهر عباده بالموت ويهلك ملوك ويستخلف آخرين، فكيف تزول الجبال ولا يزول عهده، فهذا من باب المبالغة المرفوضة التي يطريها الشاعر على ممدوحه للحصول على رضاه.

نستشف مما تقدمت من أشعار وقصائد طوال أن جريراً كان يجسد في مدائحه للأمويين فكرة اختيار الخليفة من قبل الخالق سبحانه عز وجل لا دخل للإنسان في هذا الاختيار، فعلى الرعية أن تطيع الخليفة المنصب من قبل القدرة الإلهية، ولا اتفق مع الشاعر بما يقر من مبدأ في إجبار وإكراه الإنسان، وإنما أعطاه الله الخيرة فيما يختار من قيادة على طريق الديمقراطية حسب المفهوم الحديث، وبذلك يتضح أن الخير من الله وتفويض أمر إصلاح الأمة لها عن طريق المشاورة، لأنها أمة عاقلة تعرف سبيل إصلاحها وديمومتها.

لقد أصبح جرير بمدائحه داعية للعهد الأموي، فهو اللسان الناطق عن حقهم بالخلافة وأحقيتهم فيها، لأنهم ساروا على نهج الله ورسوله حسب مايدعي ذلك، ومن هذا المنطلق يتضح للقارئ أن شعره يعد وثيقة تاريخية لعصر بني أمية يضاف إلى ماسجل عنهم في عصر بني العباس، ويبقى سجلاً دقيقاً في رسم الصورة الحقيقية لنظرة الأمويين ومن تبعهم إلى الخلافة وما ينطوي بمعيتها.

هذا من ناحية المعنى والمبدأ والعقيدة والغاية في نفس الشاعر، أما من حيث الصياغة والتركيب فتعد مدائح جرير خير مايمثل شعر المدح في عصر بني أمية أنه يمثل البيئة الإسلامية العربية، فهو يجمع بين صفاء البادية ومفاهيم الإسلام فأتى محلى بوشي اللفظ ورقة المعاني، وجودة في الاسلوب، وسبك في الألفاظ، ودقة في وصف

الممدوح، لأنها تمثل نفساً مؤمنة بعقيدتها وبواقع أمتها المشرق، وإن جريراً كان بدوي الطبع على السجية غير متكلف في استرساله للشعر واختيار ألفاظه ومعانيه، فهو خير من يمثل الخط البدوي الذي أثر وتأثر بالحياة الجديدة.

فمدائحه لاتخلو من مسحة دينية تفسرها نفسه المؤمنة، فالخلافة والقرآن الكريم والأحكام والهداية وسبل الرشاد والجمع والأمانة والورع والتقوى والصلاح والهدى والبركة وما إلى ذلك من ألفاظ منتشرة في مدائحه هي خير دليل على أنه زاوج بين مفاهيم الإسلام ومعانيها مع مانشأ عليه من تقاليد البادية وروعة التقليد للعرب الأوائل(٦٣).

لم يقتصر جرير في مدائحه على الخلفاء فقط، وإنما سرى ذلك إلى مدح ولاة الأمصار كما مر بنا في مدائحه للحجاج والي العراق في عهد عبد الملك، إن مدحه للولاة جاء نتيجة حتمية بإيمانه العميق بأن الولاة هم الأداة المنفذة لأوامر الخليفة، وما دام الخليفة يطبق مانزل من السماء حسب معتقده، فالوالي أيضاً يطبق ذلك، فنراه يمدح الوالي خالد بن عبد الله القسري بقصيدة مقلداً فيها القدماء. ذاكراً فيها أعمال الرجل، وكيف داوى بها أمراض العراق آنذاك وأنه أول مابدأ بالنسيب تمشياً مع مااعتاد عليه الشعراء الأوائل في الجاهلية بما يعرف بالمقدمة الغزلية، يتحقق ذلك بقوله:

لعلَّ فِراقَ الحيِّ للبَيْن عامدي عشيّةَ قارات الرُّ حَيلِ الفوارِدِ
لَعَمرُ الغواني ماجزَينَ صبابَتي بهنَ ولا تحبيرَ نسجِ القصائدِ
ونطلبُ وداً منكَ لو نستفيدهُ لكانَ إلينا من أحبِّ الفوائدِ
فلا تجمَعي ذكرَ الذُّنوبِ لتبخلي علينا وهِجرانَ المُدلَّ المُباعدِ(٦٤)

ثم ينتقل إلى ذكر الممدوح بالاسم ويعده طبيباً يشفي المرض الذي حل بالعراق بطريق الخير والصلاح، وبحلم يخالطه تقى وورع وسيرة على طريق الهدى، يتحقق بقوله:

لقد كان داءٌ بالعراقِ فما لقُوا طبيباً شفَى أدواءهمْ مثلَ خالدِ
شَفاهمْ برفقٍ خالطَ الحِلم والتُّقَى وسيرةِ مهديٍّ إلى الحقِّ قاصدِ(٦٥)

لقد كرر جرير كلمة (المهدي) في مدائحه للخلفاء والولاة على السواء، وهذه إشارة واضحة بإيمانه ولو ظاهرياً بخلافة بني أمية وولاتهم، وأنهم هم الهادون المهديون ويتبعهم بذلك الولاة ثم يبالغ في ممدوحه، ويذكر أنه حالم وحليم، وتقي وورع، ومؤمن بالله ورسوله وسار بالناس على طريق عدل وهدى الشريعة الإسلامية.

كما مدح جرير المهاجر بن عبد الله الكلابي عندما كان أمير اليمامة والبحرين في خلافة هشام. في هذه القصيدة أيضاً التزم بالمقدمة الغزلية بخمسة أبيات من أبيات النسيب ذات الألفاظ الرقيقة الخلابة التي تطرب إليها الأذن، وتستأنس بها النفوس فيقول:

أقـــادكَ بالمقـــادِ هـــوىً عجيـــبٌ ولجّـــتْ فـــي مباعـــدة غَضـــوبُ
أكـــلُّ الـــدّهر يُـــؤيسُ مـــن رجـــاكمْ عـــدوٌ عنـــدَ بابـــكِ أوْ رقيـــبُ
وكيـــفَ ولا عـــداتُكَ نـــاجزاتٌ ولا مرجـــوٌّ نـــائلكُمْ قريـــبُ
فـــلا يُنســـى ســـلامُكمُ علينـــا ولا كـــفٌّ أشـــرتِ بهـــا خضـــيبُ
مـــعَ الهجـــرانِ قطّـــعَ كـــلَّ وصـــلٍ هـــوىً متباعـــدٌ ونـــوىً شـــعوبُ[٦٦]

بعد المقدمة يدخل بمدح المهاجر، ومن خلال ذلك المدح يعرج إلى مدح الخليفة هشام بن عبد الملك، ويعده أنه هو بعث المهاجر لكي يصلح مافسد من أمور المسلمين، ويحكم بها بالعدل ولو كره المنافقون. هذا حسب نظرته ورأيه في ساسة بني أمية، والواقع أن جريراً دفعه إلى ذلك المدح حب الدنيا، وما يحصل من متاعها على الرغم من أن فيه بعض التدين أو تدين خفي في روحه المؤمنة بالله، ولكن طغى عليها طمع الدنيا، ونلاحظ ظهور ذلك التدين والورع عند مدحه للخليفة العادل الراشدي بحسب مايعده بعض المؤرخين، عمر بن عبد العزيز (رض).

لقد مدح جرير المهاجر وعده صاحب عدل، والذين أرسلوه هم أصحاب عدل بقوله:

لقـــدْ بعـــثَ المهـــاجرَ أهـــلُ عـــدلٍ بعهـــد تطمـــئنُّ بـــه القلـــوبُ
تنجّبـــكَ الخليفـــةَ غيـــرَ شـــكٍّ فســـاس الأمـــرَ منتجـــبٌ نجيـــبُ
فحكمـــكَ يامهـــاجرُ حكـــمُ عـــدلٍ ولـــو كـــرهَ المنـــافقُ والمريـــبُ[٦٧]

ولابد من القول أن الخليفة عمر بن عبد العزيز (رض) كان أعدل وأتقى خليفة بين خلفاء بني أمية، ويعده بعض المؤرخين الخليفة الخامس الراشدي لعدله وورعه وتقواه، لذلك مدحه الشعراء، وهو أهل للمدح رغم أنه رجل متواضع لايريد من يفخمه ويقول فيه شيئاً ليس عنده وينظر إلى الشعر والشعراء نظرة عدم اهتمام واكتراث خلاف نظرة غيره من الخلفاء والولاة الذين سبقوه في الحكم، فهو الذي بقي الشعراء ببابه أياماً بل أشهراً عندما تسلم الخلافة لم يأذن إليهم وبعد ذلك أذن إليهم بعد إلحاحهم وإلحاح من هم بمعيته من مساعدين وأهل المشورة والمعونة في سياسة الدولة. جاء في الأغاني: "لما استخلف عمر

بن عبد العزيز (رض) جاءه الشعراء فجعلوا لايصلون إليه فجاء عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود وعليه عمامة قد أرخى طرفيها فدخل فصاح به جرير وقال:

يأيّهـــا الرّجـــلُ المُرخـــي عِمامتـــهُ هــذا زمانُــكَ إنّــي قــدْ مضــى زمَنــي
أبلـــغْ خليفتنـــا إنْ كنـــتَ لاقيـــهُ أنّــي لــدى البــابِ كالمصــفودِ فــق قــرنِ
لاتـــنسَ حاجتنـــا لاقيـــتَ مغفـــرةً قدْ طال مُكثي عن أهلي وعن وطني[٦٨]

قال: فدخل على عمر فاستأذن له، فأدخله عليه، وكان قد هيأ له شعراً، فلما دخل عليه غيره فقال:

إنّـــا لنرجـــو إذا مـــا الغيـــثُ أخلفنـــا مـــن الخليفـــة مـــانرجو مـــن المطـــرِ
يـــارُبّ ســـجلٍ مغيـــثٍ قـــد نفحـــتْ بـــهِ مـــن نائـــلٍ غيـــرَ منـــزوحٍ ولا كـــدَرِ
أأذكـــرُ الجهـــدَ والبلـــوى التـــي نزلَـــتْ أمْ قـــد كفـــاني الـــذي بُلغـــت مـــن خبـــري
مازلـــتُ بعـــدكَ فـــي دارٍ تعرّقُنـــي قـــدْ عـــيَّ بـــالحي إصـــعادي ومنحـــدري
لاينفـــعُ الحاضـــرُ المجهـــودُ باديـــهُ ولا يعـــودُ لنـــا بـــادٍ علـــى حضَـــرِ
كـــمْ بالمواســـم مـــنْ شـــعثاءَ أرملـــةٍ ومـــن يتـــيمٍ ضـــعيفِ الصـــوتِ والنّظـــرِ
يـــدعوكَ دعـــوةَ ملهـــوفٍ كـــأنَّ بـــهِ خـــبلاً مـــن الجّـــنِ أو خـــبِلاً مـــن النّشـــرِ
مِمّـــن يعـــدك تكفـــي فقـــدَ والـــدهِ كـالفرخِ فـي العُشِّ لـم يـدرُج ولـم يطـرِ[٦٩]

قال: فبكى عمر ثم قال: ياابن الخطفى، أمن أبناء المهاجرينَ أنت فتعرف لك حقهم، أم من أبناء الأنصار فيجب لك مايجب لهم، أم من فقراء المسلمين فتأمر صاحب صدقات قومك فيصلك بمثل مايصل به قومك، فقال: ياأمير المؤمنين ما أنا بواحد من هؤلاء، وإني لمن أكثر قومي مالاً وأحسنهم حالاً، ولكن اسألك ما عودتنيه الخلفاء أربعة آلاف درهم وما يتبعها من كسوة وحملان، فقال له عمر كل امرئ يلقى فعله، وأما أنا فما أرى لك في مال الله حقاً، ولكن انتظر يخرج عطائي، فانظر مايكفي عيالي سنة منه فادخره لهم، ثم إن فضل فضل صرفناه إليك، فقال جرير: لا بل يوفر أمير المؤمنين ويحمد وأخرج راضياً. قال: فذلك أحب إليَ، فخرج، فلما ولي قال عمر... ردوه إليَ، فردوه، فقال: إنّ عندي أربعين ديناراً وخلعتين إذا غسلت إحداهما ليست الأخرى وأنا مقاسمك ذلك على أن الله جل وعزّ يعلم أن عمر أحوج إلى ذلك منك، فقال له: قد وفرك الله ياأمير المؤمنين وأنا والله راض، قال: أما وقد خلفت فإن ماوفرته علي ولم تضيق به معيشتنا آثر في نفسي من المدح فامض مصاحبنا، فخرج فقال له أصحابه وفيهم الفرزدق: ما صنع

بك أمير المؤمنين ياأبا حزرة؟ قال: خرجت من عند رجل يقرب الفقراء ويباعد الشعراء وأنا مع ذلك عنه راض"(٧٠).

هذه القصة تكشف عن حقائق في حياة جرير ولاسيما إيمانه بخلافة الأمويين عموماً وخلافة عمر بن عبد العزيز خصوصاً، وذلك بما يتفق مع معتقده الإيماني بالله وتعاليم الشريعة. علماً أنه طلب من الخليفة عمر هدية مثل ماتعود عليها سابقاً من لدن الخلفاء السابقين لعمر (رض) لكنه عندما سمع الرد من قبل الخليفة من أن الأموال التي يطلبها الشعراء هي لجميع المسلمين لا ملك للخليفة فلا يتصرف في هبتها لمن يشاء فارتاح جرير نفسياً، ورفض أي عطاء من الخليفة واغتبط لهذا النفس الإيماني الذي تحمله روح وشخصية عمر بن عبد العزيز (رض)، فلقد خرج من عنده وهو راضٍ لأنه رجل يقرب الفقراء، ولا يعبث بأموال المسلمين، وأن هذه السلوكية جاءت متفقة مع مايؤمن به الشاعر من مساعدة المحتاجين والمعوزين وغيرهم.

من هذا المنطلق الإيماني والنفس المشبعة بالروح الإسلامية بدل جرير قصيدته عندما رأى الظرف المحيط بالخليفة ظرفاً إيمانياً، وما علم من تقى وورع يتصف به عمر فبدأ قصيدته بمقدمة النسيب مقلداً القدامى من الشعراء استمالة لآذان السامعين وتشويقاً لنفوسهم، واقتصر على بيتين في مقدمته هما:

لجَّتْ أمامةُ في لَومي وما عَلمت عرضِ السمّاوةِ روحاتي ولا بُكري
ولا تقعقعَ الحي العيس قاربة بينَ المِراجِ ورعْني رجلتَيْ بقرِ(٧١)

ثم ينتقل إلى وصف أتعاب السفر ومشقات الرحيل وما يلقاه الشعراء عند الرحيل إلى مجالس الخلفاء من سهر وتعب وعناء ومايعتري رواحلهم من هزال الجسم مؤكداً ذلك بالنفي والاستثناء بقوله:

ماهوّمَ القومُ مذ شدّوا رحالُهم إلا غشاشاً لدى أعضادها اليُسرِ
يضرحنَ ضرحاً حصى المعزاءِ إذ وقدتْ شمسُ النهار وعادَ الظّلُ للقصرِ
يوماً يُصادي المهارَى الخُوصَ تحسبها عُورَ العيونِ وما فيهنَّ من عورِ(٧٢)

ثم ينتقل إلى مدح الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز (رض) فيصفه برجل التقوى والصلاح، وأنه عماد الدين والغيث الذي يرتجى، فكثير من الأرامل يدعنه بلهفة، ويتوسلن إلى الله أن يعوضهن الخليفة فقد عائلهن، ووصفه أيضاً بطلاقة اللسان وحسن السياسة، وأن الخلافة مقدرة له كما قدرت النبوة لموسى (ع)، وهذه إشارة واضحة لمبدأ الجبرية الذي

أقره الأمويون على الرغم من أن عمر بن عبد العزيز بعدالته يخرج عن هذا المبدأ، لأنه أحق بالخلافة من غيره في ذلك الزمن الذي يحكم به الأمويون، لأنه جمع شمل المسلمين وأرضى العلويين وغيرهم من المسلمين فنال محبة الناس جميعهم، وأراد أن يسوس البلاد على سنة الله ورسوله ولكن بعضهم لم يرضه هذا فحاك المؤامرة لإنهاء حكم الخليفة العادل عمر (رض) فقال في حقه:

خليفةَ الله ثمَّ اللهُ يحفظهُ ... واللهُ يصحبُكَ الرّحمنُ في السّفرِ
إنّا لنرجو إذا ما الغيثُ أخلفنا ... من الخليفةِ مانرجو من المطَرِ
يرجوكَ مثلَ رجاء الغيثِ تجرهمُ ... بوركتَ جابرَ عظمٍ هيضَ منكسرِ
فإنْ تدعهُمْ فمن يرجونَ بعدكمُ ... أو تُنجِ منها فقدْ أنجينَ من ضررِ
خليفةَ الله ماذا تنظرونَ بنا ... لسنا إليكمْ ولا في دار منتظرِ
أنتَ المبارَكُ والمهديُّ سيرتُه ... تعصي الهوى وتقومُ الليلَ بالسّورِ
أصبحتَ للمنبرِ المعمورِ مجلسهُ ... زيناً وزينَ قباب المُلكِ والحجرِ
نالَ الخلافةَ إذ كانتْ له قدراً ... كما أتى ربّهُ موسى على قدَرِ
فلن تزال لهذا الدّينِ ما عمروا ... منكم عمارةُ مُلكٍ واضحِ الغُررِ(٧٣)

بعد هذا الإطراء والثناء على شخص الخليفة انتقل الشاعر إلى مدح الأرومة العليا في النسب، وهذا ماتعارف عليه الشعراء السابقون في مدح أهل الممدوح وآبائه وأجداده تماشياً مع فكرة التباهي بالأحساب والأنساب والتفاخر بالسيادة والرياسة التي ورثها الخليفة أباً عن جد فيقول:

هُمْ ماهمُ القومُ ماساروا وما نزلُوا ... إلاّ يسوسونَ مُلكاً عالي الخطرِ
ماصاحَ من حيّةٍ ينمي إلى جبلٍ ... إلاّ صدعتَ صفاةَ الحيّةِ الذّكرِ
أخوالكَ الشُّمّ من قيس إذا فزعوا ... لايُعصمونَ حذارَ الموتِ بالعذرِ(٧٤)

بعد أن كشف جرير للخليفة حاله وما يعانيه من بؤس وحرمان فرجاه أن يمحو ذلك الحرمان بجوده وكرمه وكرمه وعطفه على شاعره ليخفف آلامه ويزيل عنه تباريح العسر والشدة، وإن لسانه شاكر وذاكر، ولن ينسى الذكر والتقدير للخليفة بقوله:

كمْ قدْ دعوتُكَ من دعوى مخلَّلةٍ ... لما رأيتُ زمانَ النّاس في دُبرِ
لتنعشَ اليومَ ريشي ثمّ تنهضني ... وتُنزلَ اليُسرَ منّي موضعَ العُسرِ
فما وجدتُ لكم نِدّاً يعالكمْ ... وما علمتُ لكمْ في النّاس من خطرِ

إنّــي سأشــكر مــا أوليــتَ مــن حســنٍ وخيــرُ مَــنْ نلــتَ معروفــاً ذوو الشّــكرِ[٧٥]

يستخلص من خلال الأبيات التي مدح الشاعر بها عمر (رض) إن الشاعر كان صادق العاطفة لإيمانه بأحقية الخلافة لعمر بن عبد العزيز (رض) فعواطفه وتخيلاته اتفقت مع مبادئ الشريعة التي سار عليها الخليفة وأراد أن يطبقها، من عدالة ومحافظة على أموال المسلمين أضف إلى ذلك أنه كان جزل الألفاظ، رصين العبارة، محكم النسيج، رائع البيان، لأنه يزاوج بين الحياة البدوية لما فيها من قوة وخشونة عيش، وبين الحياة الإسلامية لما فيها من طراوة وتطرية في الحياة، فنجد في أسلوبه نفحة جاهلية وأخرى حضرية إسلامية تتخللها عبارات فخمة قوية دالة على عمق إيمان الشاعر بممدوحه، وأحقيته بالخلافة من غيره، والله أعلم.

من هذه الدراسة يمكن إجمال بعض الخصائص الفنية لمدح الشاعر لخلفاء وولاة الدولة الأموية بعد أن أخذت بنظر الاعتبار شخصية الشاعر وتأثره بالبيئة وبروزه من بين أقرانه وتفوقه على غيره ببعض الصفات الفنية وعلى الإجمال يمكن القول: إن جريراً كان مقلداً في مدحه لأنه بدوي الطبع، سار على نهج من سبقه من شعراء العرب في الجاهلية ولاسيما في المقدمة الغزلية واستخدامه إياها في مطلع القصيدة جاء رغبة منه لاستمالة أسماع ممدوحه أولاً والناس جميعاً "ليميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه، وليستدعي به إصغاء الإسماع إليه"[٧٦].

أما لغته فهي لغة العرب الفصيحة، متأثرة بألفاظ ومعاني القرآن الكريم، يستخدم تلك الألفاظ استخداماً فنياً رائعاً في كثير من قصائد مدحه، أو يأخذ معاني تلك الآيات ويضمنها قصيدة، يدل هذا على ثقافته الدينية الواسعة وطبيعة تدينه.

يمتاز فنه برقة في العبارة وسلاسة في المعنى وبسطة في المفهوم وإحكام في النسيج وروعة في البيان، ودقة ووضوح في عباراته. ويتميز أسلوبه برصانة البناء، ومتانة التركيب ولم يكن خالياً من اللفظ الغريب، لأنه محك العبقرية العربية الإسلامية، ولديه سعة الاطلاع على لغات قبائل العرب.

صوره الشعرية واضحة المعالم لاتجد فيها أي أثر للتكلف والصنعة لأنه شاعر مطبوع يقول الشعر على سجيته وسليقته العربية الأصيلة، ولم يخرج عن أوزان الشعر الجاهلي، وأما قوافيه فالأبيات تنصب بها وتنحدر إنحداراً لاتجد فيها تقلقلاً ولا اضطراباً، ومعانيه بقدر ألفاظه وألفاظه بقدر معانيه.

يقرر في كثير من قصائد مدحه إن الخلافة هي وقف من الله على البشر، فلقد شاء الله سبحانه عز وجل أن يجعلها في الأمويين، وفي هذا إشارة إلى فكرة الجبرية التي تبناها الأمويون في سياستهم مع المسلمين، وبهذا إخراج عن إجماع المسلمين في مبدأ الشورى.

وأخيراً يعد مدح جرير وثيقة تاريخية للكشف عن واقع دولة بني أمية بما فيها من متناقضات وما رافقها من خلافات سياسية بين المسلمين على مفهوم الخلافة والخليفة، أو هل سجل عن حقائق تاريخية لربما أغفلت عن المؤرخين ولاسيما في عهد بني العباس الذين أقاموا دولتهم على أنقاض دولة بني أمية.

أقول قولي هذا واستغفر الله لكم ولي من زلات القلم وشطحات اللسان، ومن أوهام العاطفة أو قلت قولاً فيه مبالغة أو تحيزاً إلى طرف دون آخر، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الهوامش:

(١) تاريخ الشعر العربي في العصر الإسلامي/١٦١.
(٢) التطور والتجديد في الشعر الأموي/١٣٤.
(٣) الاشتقاق ٢٣١/١.
(٤) الأغاني ١٠٦/٧.
(٥) المصدر نفسه ٦٧/٧.
(٦) الشعر والشعراء ٤٦٤/١، ووفيات الأعيان ٣٢٦/١.
(٧) طبقات فحول الشعراء ٢٩٧/٢.
(٨) المصدر نفسه ٣٧٤/٢.
(٩) المصدر نفسه ٣٧٤/٢-٣٧٥.
(١٠) المصدر نفسه ٣٧٥/٢.
(١١) المصدر نفسه والصفحة نفسها.
(١٢) المصدر نفسه ٣٧٧/٢-٣٧٨.
(١٣) الشعر والشعراء ٤٦٥/١.
(١٤) تاريخ الأدب العربي/٢٩٤.
(١٥) جرير/مدح وغزل ورثاء درس ومنتخبات/٥١٥.
(١٦) نوابغ الفكر العربي، جرير/٤٣.

(١٧) المفصل في تاريخ الأدب العربي/١٣٨.
(١٨) الشعر والشعراء ٤٦٥/١، والأغاني ٦٨/٧.
(١٩) طبقات فحول الشعراء ٣٨٠/٢-٣٨١.
(٢٠) ديوانه/٧٧.
(٢١) المصدر نفسه/٦٤.
(٢٢) المصدر نفسه/٦٣.
(٢٣) شرح ديوانه/٥٩٥.
(٢٤) الأغاني ٩٩/٧-١٠٠.
(٢٥) طبقات فحول الشعراء ٣٨٠/٢، والبيت في ديوانه/٣٨٤.
(٢٦) وفيات الأعيان ٣٢٦/١.
(٢٧) الأغاني ١١٠/٧.
(٢٨) طبقات فحول الشعراء ٣٧٨/٢.
(٢٩) نوابغ الفكر العربي، جرير/٥٧.
(٣٠) لسان العرب (مدح).
(٣١) تاريخ الأدب العربي، حنا فاخوري/٢٩٧.
(٣٢) شرح ديوان جرير/٢٥٦.
(٣٣) نوابغ الفكر العربي، جرير/٤٧.
(٣٤) ديوانه/١٠٦-١٠٧.
(٣٥) المفصل في تاريخ الأدب العربي/١٣٨-١٣٩.
(٣٦) شرح ديوانه/١٦-١٧.
(٣٧) سورة نوح، آية/٢٧.
(٣٨) سورة المعارج، آية/٣.
(٣٩) ديوانه/٣٤٦-٣٤٧.
(٤٠) تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي/٢٨٠، والبيت في شرح ديوانه/٥٢٠.
(٤١) شرح ديوانه/٨٩.
(٤٢) ديوانه/٧٤.
(٤٣) سورة النساء، آية/٧٨.
(٤٤) ديوانه/٧٤.
(٤٥) المصدر نفسه/٢١.
(٤٦) التطور والتجديد في الشعر الأموي/١٦٩.

(٤٧) الكامل في اللغة والأدب ١/٣٨١.
(٤٨) عيون الأخبار ٢/٢٦٧.
(٤٩) شرح ديوانه/٤٤٠- ٤٤١.
(٥٠) ديوانه/٧٦.
(٥١) المصدر نفسه/٧٧.
(٥٢) المصدر نفسه/٧٧.
(٥٣) المصدر نفسه/٧٧-٧٨.
(٥٤) تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي/٢٨١-٢٨٢.
(٥٥) ديوانه/٢٧٨.
(٥٦) المفصل في تاريخ الأدب العربي ١/١٣٧-١٣٨.
(٥٧) سورة الشورى، آية/٣٨.
(٥٨) ديوانه/٣٨٠.
(٥٩) شرح ديوانه/٤٩٢.
(٦٠) المصدر نفسه/١٤٧.
(٦١) ديوانه/٣٤٦-٣٤٧.
(٦٢) سورة الرحمن، آية/٢٦-٢٧.
(٦٣) جرير قصة حياته ودراسة أشعاره/١٥٣.
(٦٤) ديوانه/١٣٦.
(٦٥) المصدر نفسه/١٣٧.
(٦٦) المصدر نفسه/٣٧-٣٨.
(٦٧) المصدر نفسه/٣٨.
(٦٨) المصدر نفسه/٤٨٦.
(٦٩) المصدر نفسه/٢١٠-٢١١.
(٧٠) الأغاني ٧/١٠٤-١٠٥.
(٧١) ديوانه/٢١٠.
(٧٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها.
(٧٣) المصدر نفسه/٢١٠-٢١١.
(٧٤) ديوانه/٢١١.
(٧٥) المصدر نفسه/٢١١.
(٧٦) الشعر والشعراء ١/٧٥.

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

٢- الاشتقاق، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت ٣٢١ هجرية)، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، العراق، بغداد، ط ١٩٧٦م.

٣- الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، تصحيح: لجنة من الأدباء والمدرسين، منشورات دار الفكر، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٥٥م.

٤- تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري، المطبعة البوليسية، بيروت، (د.ت).

٥- تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، د.شوقي ضيف، ط٤، دار المعارف، مصر، ١٩٦٣.

٦- تاريخ الشعر العربي في العصر الإسلامي، د.يوسف خليف، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٧٦م.

٧- التطور والتجديد في الشعر الأموي، د.شوقي ضيف، ط٢، دار المعارف، مصر، القاهرة، ١٩٥٩م.

٨- جرير، درس ومنتخبات بقلم فؤاد أفرام البستاني، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٤١م.

٩- ديوان جرير، دار صادر، بيروت، (د.ت).

١٠- شرح ديوان جرير، محمد اسماعيل عبد الله الصاوي، مطبعة الصاوي، مصر، ط٦، د.ت.

١١- الشعر والشعراء أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت ٢٧٦ هجرية)، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، مطبعة المدني، السعودية، جدة، ١٩٨٠م.

١٢- طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي (٢٣١ هجرية)، شرح وتحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، السعودية، جدة، ١٩٨٠م.

١٣- عيون الأخبار، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (٢٧٦ هجرية)، تحقيق: د.يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٥م.

١٤- الكامل في اللغة والأدب، أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة، القاهرة، (د.ت).

١٥- لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور (ت٧١١ هجرية)، دار صادر، دار بيروت، ١٩٥٥م.
١٦- المفصل في تاريخ الأدب العربي، أحمد الأسكندري وآخرون، وزارة المعارف، مصر، (د.ت).
١٧- نوابغ الفكر العربي، جرير، بقلم: محمد إبراهيم جمعة، دار المعارف، مصر، ١٩٦٥م.
١٨- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان (٦٨١ هجرية)، تحقيق: د.احسان عباس، دار الثقافة، بيروت، (د.ت).